المقاصد البلاغية والأسلوبية للأساليب الإنشائية في قصة يوسف عليه السلام

د.عبده محمد صالح الحكيمي

أستاذ البلاغة والنقد المشارك- كلية التربية- جامعة صنعاء

Email: abdoaihkimi532@gmail.com

الملخص

يهدف هذا البحث إلى إبراز الجوانب البلاغية، والمقاصد الأسلوبية للأساليب الإنشائية في قصة يوسف.

وسيقتصر حديثنا على الأساليب الإنشائية الطلبية وبلاغتها، في هذه القصة المحكمة، وهي التي يهتم بها البلاغيون ويقدمونها على الأساليب غير الطلبية، وتنحصر في الأمر والنهي والاستفهام، والتمني والنداء.

يسبق ذلك تمهيد موجز حول قصة يوسف، وما بها من عبر وعظات، وما تضمنته هذه القصة من نوازع الخير والشر في الطبع البشري، وما اشتملت عليه من صبر وتسامح، وفرج بعد شدة ، ويسر بعد عسر.

وذكر في التمهيد مبررات البحث وأهميته وأهدافه ومنهجه.

والأساليب الإنشائية تكثر في القرآن الكريم كثرة لافتة، ولاسيما الاستفهام، ثم يأتي بعده الأمر والنهي. غير أن (الأمر) في قصة يوسف بدا أكثر بروزًا من الاستفهام. ولذلك قسم البحث إلى أربعة مباحث:

المبحث الأول: الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية لأسلوب الأمـــر في قصة يوسف.

المبحث الثاني: الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية لأسلوب النهي في قصة يوسف.

المبحث الثالث: الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية لأسلوب الاستفهام في قصة يوسف.

المبحث الرابع: الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية لأسلـــوب النـــداء في قصة يوسف.

ومن دراسة هذه الأساليب تبين ما تزخر به هذه الأساليب من طاقات إيحائية تنحرف بها عن دلالتها الحقيقية إلى أغراض بلاغية، ومقاصد أسلوبية يفيدها السياق. وخرج التمني من هذه المجموعة؛ لعدم وجود شواهده.

كلمات مفتاحية: يوسف، أساليب إنشائية، أمر، نهي، استفهام، نداء.

Stylistic Rhetorics in Yusuf Story

Dr. Abduh Mohammed Saleh Elhakimi
Associate Professor of Rhetorics, Faculty of Education, Sana'a University

Abstract:

The present study aims to highlight the rhetorical aspects and structural methods in Joseph (*Yususf*) story. The discussion is restricted to the requesting structural methods and their rhetoric in the well-structured story since the requesting structural methods are preferred by rhetoricians to non-requesting ones. The requesting forms include: ordering, discouraging, questioning, wishing, and calling.

Prior to the main argument, an introduction has been given to Joseph story including the morals derived, the human evil and good inclinations, and such incorporated themes as patience, tolerance, and the relief that follows distress.

The structural methods are common in the Holy Quran, namely questioning, ordering, discouraging, although ordering in Joseph story is the most frequent.

The article is divided into four sections tackling respectively: ordering, discouraging, questioning, and calling. The study concludes that such methods are charged with connotations which emphasize their rhetorical rather than semantic functions. Wishing is excluded due to the lack of textual evidences.

Keywords: Joseph(*Yususf*), Structural methods, Ordering, Discouraging, questioning, calling

تمهيـــــــد:

عرض القرآن الكريم قصة يوسف عليه السلام مفصلة في سورة تحمل اسمه عليه السلام، تسلية للنبي – صلى الله عليه وسلم – وتثبيتًا لفؤاده، وللتأسي به في صبره وجهاده في دعوته، حيث أيده الله بنصره، ورفعه مكانا عليًّا، ولأخذ العظة والعبرة منها.

إن قصة يوسف فيها الكثير من الدروس والعبر الصالحة لكل زمان ومكان، فهي تصور لنا الطبع البشري الذي قد توجد فيه لمسات الحقد، وحب التشفي والانتقام، والمكر والخديعة، وتكشف نوازع المرأة الشيطانية التي كثيرا ما تنزلق في المهالك والشهوات، وتستجيب لدواعي الهوى، وتصور لنا السماحة والحب والعفة والصبر الجميل.

وقصة يوسف تكشف لنا ملامح القصة القرآنية في ترابط أحداثها وواقعيتها، والشخصية القرآنية وحيويتها، وعنصر التشويق والإثارة، كما تبين مدى الانسجام والتناسق، مع قوة الإحكام والربط في هذه السورة الكريمة.

وحاصل هذه القصة فرج بعد شدة، وتوضح المآل بحسن عاقبة الصبر؛ فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه السلام– بفقد ابنيه وبصره، وشتات بنيه، وامتحن يوسف عليه السلام – بالجب، والبيع، وامرأة العزيز، وفقد الأب، والإخوة، والسجن، وامتحن جميعهم بشمول الضر، وقلة ذات اليد، ثم تداركهم الله فجمع شملهم، ورد بصر أبيهم، وألف بين قلوبهم، ورفع ما نزغ به الشيطان، وخلص يوسف عليه السلام من كيد الكائدين، واكتنفه بالعصمة، وبراءته عند الملك والنسوة، وإنابة امرأة العزيز، ورجوعها إلى الحق، وشهادتها ليوسف عليه السلام بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين، واستخلاص الملك إياه، ورفع مكانته. وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر، وجلالة اليقين[1].

وهي قصة ممتعة لطيفة، تحمل أجواء الأنس والرحمة بأسلوب فذ في ألفاظها وتعبيراتها، مما يجعلها تسري مع النفس سريان الدم في العروق، فيستراح لها. وهذا يعد جانبا من جوانب الإعجاز البلاغي في القصص القرآني.

ولا شك أن إظهار هذا الإعجاز في الآيات القرآنية له دور كبير في إيجاز المقاصد القرآنية: العقدية والتشريعية والتربوية.

[1] – ينظر: إتحاف الإلف بذكر الفوائد الألف والنيف من سورة يوسف عليه السلام، محمد نصر وسليم الهلالي: ج1/42– 43.

ومما يساعد على إبراز هذا الإعجاز تتبع الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية المتضمنة في أساليب اللغة العربية في التعبير القرآني لإبراز تلك المقاصد القرآنية.

والجدير بالذكر أن فصل الدرس البلاغي عن المقاصد الأسلوبية يجعل درس البلاغة لا يحقق الهدف الذي وجد من أجله علم البلاغة والذي يساعد على الفهم العميق في التعبير القرآني وإبراز جمال اللغة فيه وتذوق معانيها، وهذه مشكلة يعاني منها واقع الدرس البلاغي في المدارس والجامعات الذي أصبح مفرغاً من أهدافه، ويدور حول بعض الأغراض البلاغية التي وجدت عند السكاكي وغيره من علماء البلاغة القدامى، وهي لا تفي بفهم النص اللغوي فهمًا عميقًا.

ولا شك أن تلك الأغراض البلاغية قد أضاف إليها علماء التفسير أغراضًا أخرى تحتاج إلى تتبع لتضاف إلى الدرس البلاغي وتتكامل وتتآزر مع المقاصد الأسلوبية لإظهار الإعجاز البلاغي في النص القرآني؛ مما يساعد على الاستنباط السليم للمقاصد القرآنية.

لهذا أراد الباحث أن يسهم في الحد من هذه المشكلة للواقع الحالي للدرس البلاغي من خلال تتبع الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية للأساليب الإنشائية في قصة يوسف عليه السلام؛ من أجل إظهار بعض جوانب الإعجاز البلاغي في تلك الأساليب؛ لاستنباط المقاصد القرآنية المتضمنة فيها، وذلك لكثرة تلك الأساليب في سورة يوسف، وسيكون عنوان البحث كالآتي:

(المقاصد البلاغية والأسلوبية للأساليب الإنشائية في قصة يوسف عليه السلام).

مبررات البحث:

إن مما لفت نظر الباحث أن الأغراض البلاغية للأساليب الإنشائية في قصة يوسف تحتوي على مقاصد أسلوبية ترفد الأغراض البلاغية، وتتصل بها اتصالًا وثيقًا في إظهار المقاصد القرآنية للآيات التي وردت في تلك القصة في القرآن الكريم؛ وهذا يعد جانباً مضيئًا من جوانب الإعجاز البلاغي، ولم يلتفت كثير من الباحثين في الدراسات البلاغية والأسلوبية إلى هذا الجانب إلا ما وجد مشتتًا في بعض الأبحاث، وبعض كتب التفسير.

فأراد الباحث أن يجمع هذا المشتت لإظهار جوانب من هذا الإعجاز البلاغي من تلك المصادر والمراجع في قصة يوسف؛ ليسهم في رفد الدراسات البلاغية والأسلوبية التي تظهر بعض هذه الجوانب من الإعجاز في القرآن الكريم الذي لا تنتهي عجائبه وغرائبه.

أهمية البحث:

تبرز أهمية هذا البحث في أنه يبرز جانبًا من الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم من خلال الجمع بين الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية المتضمنة في الأساليب الإنشائية في بعض الآيات التي وردت في قصة يوسف؛ لإظهار المقاصد القرآنية من تلك الآيات.

وقد يفيد معلم الأدب والنصوص؛ لإظهار جمال التعبير في أساليب اللغة وتذوق معانيها.

وقد يفيد معلم التفسير ليظهر بعض جوانب الإعجاز البلاغي التي تعينه في التوصل إلى المقاصد القرآنية: العقدية والتربوية والتشريعية، والفهم الصحيح لآيات القرآن الكريم.

وقد يفيد هذا الجهد الباحثين المتخصصين في الدراسات البلاغية والأسلوبية لفتح آفاق البحث في أساليب أخرى غير الأساليب الإنشائية لتقصي أغراضها البلاغية والأسلوبية لإظهار جوانب أخرى من الإعجاز البلاغي في القصص القرآني.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى الآتي:

1- تتبع الأغراض البلاغية و المقاصد الأسلوبية للأساليب الإنشائية في قصة يوسف.

2- التوصل إلى المقاصد القرآنية في الآيات المتضمنة في تلك الأساليب.

منهج البحث وإجراءاته:

سيتتبع البحث المنهج الوصفي القائم على الاستقراء والتتبع والتحليل والاستنباط، وسيتم من خلاله استقراء جميع الآيات المتضمنة الأساليب الإنشائية في قصة يوسف، واستقراء الأغراض البلاغية لتلك الأساليب، وتتبع المقاصد الأسلوبية المتضمنة في تلك الأساليب، واستنباط المقاصد القرآنية من خلال الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية في الآيات المتضمنة تلك الأساليب في قصة يوسف.

المبحث الأول

الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية لأسلوب الأمر في قصة يوسف

الأمـــــــــــــــر: طلب الفعل من الأَعلَى للأدنى على وجه الإيجاب والإلزام.

ولِلأَمْر أَرْبَعُ صيَغٍ:

1- فِعْلُ الأمر، نحو قول أمير المؤمنين عليّ – رضي الله عنه– بعث بها إلى ابن عَباس وكان عاملا له بمكة :

«أَمَّا بَعْدُ، فَأَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ، وَاجْلِسْ لَهُمُ الْعَصْرَيْنِ، فَأَفْتِ الْمُسْتَفْتِيَ، وَعَلِّمِ الْجَاهِلَ، وَذَاكِرِ الْعَالِمَ.

2- الْمُضَارِعُ المقرونُ بلام الأَمْر، نحو قوله تعالى: (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) [الحج:29].

3- اسمُ فِعْلِ الأَمْر، نحو قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) [المائدة:105].

4- المَصْدرُ النَّائبُ عَنْ فِعْلِ الأَمْر، نحو قوله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا..) [الإسراء:23].

إذا تأملت الأَمثلة السابقة رأيت كلاً منها يشتمل على صيغةٍ يُطْلب بها على وجه التكليف والإلزام حصول شيء لم يكن حاصلاً وقت الطلب. ثم إذا أَنعمت النظر رأيت طالب الفعل فيها أعظم وأعلى ممن طُلِب الفعل منه. **وهذا هو الأمر الحقيقي** ، وإذا تأَملت صِيغَتَهُ رأَيتها لا تخرج عن هذه الصيغ الأربع.

وأسلوب الأمر هو أبرز الأساليب الإنشائية الطلبية ذكرا في قصة يوسف، ومعظم صيغه خرجت عن الأمر الحقيقي، إلى دلالات ومعان بلاغية أفادها السياق:

1ــ الرجاء:

لعل أكثر الأغراض التي خرج إليها الأمر في قصة يوسف هو الرجاء.

وفي نسق هذه القصة جاءت بعض أساليب الأمر تفيد معنى الرجاء على ألسنة بعض شخصيات القصة، حيث جاءت على لسان إخوة يوسف، وعلى لسان مبعوث الملك.

ورد الرجاء على لسان إخوة يوسف في مواضع متفرقة من سورة يوسف منها قوله تعالى:

(أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) (13) [يوسف : 12 ، 13].

بهاتين الآيتين يتبين خداع إخوة يوسف ومكرهم للتفريق بين يوسف وأبيه، فاستطاعوا بدهائهم إخراج يوسف معهم، فتلطفوا في الحديث مع أبيهم، وذكروا نصحهم له، وما في إرساله معهم من انشراح صدر يوسف باللعب والارتعاء، وذكروا حفظهم وحرصهم على أخيهم مما قد يسوؤه. ففي التعبير بقوله:(**مالك لا تأمنا)** دليل على أنهم تقدم منهم سؤال في أن يخرج معهم، وذكروا سبب الأمن، وهو النصح « أي لم لا تأمنا عليه وحالتنا أننا له ناصحون».[1]

فالأمر في قوله: **(أرسله)** للرجاء .

وورد الرجاء في قوله تعالى: **(وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)** [يوسف: 45 ، 46]. فالأمر في قوله: **(أرسلون)** للرجاء ، وَضَمَائِرُ جَمْعِ الْمُخَاطَبِ فِي أُنَبِّئُكُمْ- فَأَرْسِلُونِ مُخَاطَبٌ بِهَا الْمَلِكُ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ[2]، وفي الكلام حذف، تقديره فأرسلوني إلى يوسف، وإنما لم يذكره؛ لما لحق من قوله في الآية التي بعدها: **(يوسف أيها الصديق)**[3].

وقال ابن عاشور: وَلَمْ يُسَمِّ لَهُمُ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُفَاجِئَهُمْ بِخَبَرِ يُوسُفَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- بَعْدَ حُصُولِ تَعْبِيرِهِ لِيَكُونَ أَوْقَعَ، إِذْ لَيْسَ مِثْلُهُ مَظِنَّةَ أَنْ يَكُونَ بَين المساجين[4].

قال تعالى: **(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)** [يوسف : 46].

(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ) أي أُرْسِلَ إليه فأتاه فقال: يا يوسف، ووصفَه بالمبالغة في الصدق حسبما شاهده وذاق أحوالَه وجرّبها، وهذا من براعة الاستهلال.[5]

---

1 – ينظر البحر المحيط: ج 5/ 285، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1– 1997 : ج305/2.

2 – التحرير والتنوير: ج 283/12.

3 – ينظر الكشاف: ج2/ 324، التفسير الكبير: ج 18/ 152، تفسير أبي السعود(إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) ج153/3.

4 – التحرير والتنوير: ج 12/ 284.

5 – تفسير أبي السعود: ج3 / 153 وينظر الكشاف: ج2/ 324.

والأمر في قوله (أفتنا) للرجاء ، أي أفتنا في رؤيا ذلك، وإنما لم يصرح به لوضوح مرامه بقرينة ما سبق من معاملتهما، ولدلالة مضمون الحادثة عليه، حيث لا إمكان لوقوعه في عالم الشهادة، أي بين لنا مآلها وحكمها، وحيث عاين علو رتبته عليه السلام في الفضل، عبر عن ذلك بالإفتاء، ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولا (نبئنا بتأويله) .

والتعبير بقوله: **(أفتنا)** مع أنه المستفتي وحده، إشعارًا بأن الرؤيا ليست له، بل لغيره ممن له ملابسة بالأمور العامة، وأنه في ذلك معبر وسفير، كما آذن بذلك، حيث قال : **(لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)**، والمراد بالناس هنا الملك وأهل مجلسه.[1]

ولا ريب أن الأحداث في قصة يوسف عليه السلام تمضي في سرعة عجيبة، والمشاهد أو المناظر تتوالى مسرعة، حيث يطوي السياق ذلك البعد، وتقتضب الأسفار الشاقة[2].

من ذلك ما نراه في هذا المشهد حيث نجد إخوة يوسف أمام العزيز قال تعالى: **(قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)** [يوسف : 78].

استعطف إخوة يوسف العزيز واسترحموه لإطلاق سراح أخيهم، حيث وصفوا أباهم بحنان الأبوة وصفة الشيخوخة، واستحقاقه جبر خاطره؛ لأنه كبير قومه، أو لأنه انتهى في الكبر إلى أقصاه، كما عرضوا عليه أن يأخذ بدله واحدًا منهم، واستعانوا في رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبره، لعله يلين، بقولهم: **(إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)** أي فأتمم إحسانك بإطلاق سراحه، أو من عادتك الإحسان، فأجر على عادتك ولا تغيرها.[3]

فالأمر في قولهم: «خذ» خرج إلى معنى الرجاء والاستعطاف.

ومثله قوله تعالى: **(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ)** [يوسف : 88] . تبين هذه الآية الكريمة حالة إخوة يوسف عند دخولهم على العزيز؛ فهي حالة الضعف والذل والانكسار، حيث أضرت بهم المجاعة ونفدت نقودهم، وجاءوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم، يشترون بها الزاد، وفي حديثهم انكسار لم يعهد

---

[1] – ينظر تفسير أبي السعود 3/ 153، التحرير والتنوير: ج12/ 285.

[2] – ينظر من الإعجاز البلاغي للقرآن ص231.

[3] – ينظر الكشاف: ج2/336. وأبي السعود: ج3/ 177. التحرير والتنوير: ج36/13. في ظلال القرآن: ج2022/4.

في أحاديثهم من قبل، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام، وهي بلا ريب حالة تبعث على الرحمة والشفقة والعطف.[1]

فأفاد الفعلان (أوف) و(تصدق) معنى الرجاء والاستعطاف.

ونظيره قوله تعالى: **(فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)** [يوسف : 63]. فالأمر في قوله:(فأرسل) كسابقه للرجاء والاستعطاف.

ومنه قوله تعالى:

(وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) [يوسف : 82]. فالأمر في قوله: (واسأل) للرجاء، كما هو واضح من السياق.

ومنه قوله تعالى: **(قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ)** [يوسف : 97].

الأمر في قوله: **(استغفر لنا)** يصور رغبة نفسية، ورجاءً واعترافًا بالذنب وتوبةً نصوحًا، فسألوا أباهم أن يطلب لهم المغفرة، من الله الغفور الرحيم. فهو رجاء واستعطاف.

2- المشـــــــــورة:

ومما جاء من أساليب الأمر للمشورة قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته: **(اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)** [يوسف : 9 ، 10].

تصور هذه الآيات الكريمات ضعف النفوس، والحقد الذي يغلي في الصدور، وتعرض هذه القصة كأنموذج يوضح هذه الحقيقة، وليس من شك في أننا من خلال التعبير القرآني في هذا السياق نلاحظ سيطرة الحقد العجيب على إخوة يوسف، وكيف أوصلهم إلى ما أوصلهم إليه، حيث تشاوروا فيما بينهم في قتله، أو نفيه، والظاهر أن «**أو اطرحوه**» هو من قولهم أن يفعلوا به أحد الأمرين، ويجوز أن تكون (أو) للتنويع، أي قال بعضهم: «**اقتلوا يوسف**»، وبعضهم قال «**اطرحوه**».[2] فالأمر هنا للمشورة كما يدل عليه السياق، ويحمل في طياته دلالة التخيير بين الأمرين.

وأما قوله تعالى: **(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ)**، فهو أسلوب نهي، وهو أيضًا في غرض المشورة، كما سيأتي.

---

[1] – ينظر تفسير أبي السعود: ج 3/ 183، في ظلال القرآن: ج4/ 2026 وما بعدها .

[2] – البحر المحيط: ج5/ 283، وراجع الكشاف: ج305/2، التفسير الكبير: ج97/18، وحاشية الشهاب: ج158/5.

ومن المشورة أيضًا قوله تعالى: في رؤيا ملك مصر:

(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) [يوسف : 43]. يرى الملك هذه الرؤيا، ويعجز المفسرون عن تفسيرها، ونجد تعبيرها عند يوسف، وهنا تتوالى المفاجآت، في سلسلة من الترابط والاتساق، اعتراف امرأة العزيز، وخروج يوسف من السجن، وتوليه أمر الخزانة.

وتعبير الملك بالإفتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه[1].

3- الالتماس:

وردت بعض أساليب الأمر في قصة يوسف عليه السلام تفيد الالتماس، منها ما جاء في قوله تعالى: **(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)** [يوسف : 36].[2]

فالأمر في قوله: (نبئنا) للالتماس؛ إذ توسم الفتيان في يوسف عليه السلام رجاحة العقل، وكمال الفهم، يتضح ذلك من خلال التعبير بقولهم: **(إنا نراك من المحسنين)**.

ومنه قوله تعالى: **(وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)** [يوسف : 42].

الأمر في قوله:**(اذكرني)** مستعمل في الالتماس كما هو واضح من السياق.

ومنه قوله تعالى: **(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)** [يوسف : 50]. وفي هذه الآية نجد يوسف عليه السلام قد أبى الخروج من السجن قبل أن تثبت براءته، ولهذا:« قدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به[3]، وسجن بسببه، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عند الملك، ويجعلوه سلما إلى حط منزلته لديه، ولئلا يقولوا ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم، وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب، ويستكف شره»[4].

---

1 – تفسير أبي السعود: ج3 / 440.

2 – راجع الآية في الكشاف والتحرير والتنوير: ج269/12.

3 – قرف به: اتهم به.

4 – الكشاف": ج325/2.

وَجُعِلَ السُّؤَالُ عن النِّسْوةِ دُونَ امْرَأَةِ الْعزيزِ تَسْهِيلًا لِلْكَشْفِ عن أَمْرِهَا؛ لِأَنَّ ذِكْرَهَا مع مكانةِ زَوجِهَا من الْملكِ ربما يَصرفُ الْمَلِكَ عَنِ الْكَشْفِ رَعْيًا للعزيزِ، ولأَنَّ النِّسوةَ كُنَّ شواهِدَ على إقرار امرأة العزيز بِأَنَّها راودت يوسفَ- عليهِ السّلام- عن نَفْسِهِ. فكان طلبُ الْكَشفِ عَنْ أُولَئِك النِّسوَةِ منتهى الْحكمةِ، وغايةِ الْإِيجازِ فِي الْخِطَابِ[1].

وَجُمْلَةُ: **(إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)**؛ « تَذْيِيل وَتَعْرِيض بِأَنَّ الْكَشْفَ الْمَطْلوبَ سينجلِي عَنْ بَراءَتِهِ وَظُهورِ كَيْدِ الْكَائِدَاتِ له ثِقَةً بِاللَّهِ رَبِّهِ أَنَّهُ نَاصِرهُ».[2]

ولا يمنع مانع أن يجتمع مع الالتماس غرض الرجاء في الأمثلة السابقة.

4- الدعـــــــاء:

والدعاء في سورة يوسف وفي غيرها من سور القرآن الكريم، يرسم حالة من حالات الخضوع والانقياد لله تعالى؛ لاعتقاد الداعي أن المدعو قادر على تنفيذ هذا الأمر؛ فيلجأ إليه متضرعًا متوسلًا.

ومن الدعاء في قصة يوسف قوله تعالى في خاتمة القصة على لسان يوسف عليه السلام: **(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)** [يوسف : 101]. فقد بدأ بالاسم (رب) ثم (فاطر) أي يا فاطر السماوات، والأرض، وهذا مناسب لعظيم العطاء والاقتدار على النعم الخاصة في أحداث القصة المحكمة من إخراجه من السجن وإيتائه الملك، وتعليمه التأويل، كما أنه مناسب لحكمة يوسف في جوامع دعائه ».[3]

وغرض الدعاء متحقق في الأمر؛ كون يوسف عليه السلام نبيًّا، وفي هذه الحالة يكون دعاؤه لطلب الدوام على ذلك[4].

وحذف في الدعاء أداة النداء (يا) من (رب) لكثرة الاستعمال أو لإحساس الداعي وشعوره بالقرب من ربه، والإيناس بهذا القرب.[5]

وعلى كثرة ما نودي الرب في القرآن – كما يقول الدكتور أحمد بدوي – ، لم أعثر عليه مسبوقا بحرف النداء إلا في تلك الآية الكريمة: **(وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)** [الزخرف : 88 ، 89]. يقول د. أحمد بدوي: «وألمح في المجيء بحرف النداء

---

[1] – ينظر: التحرير والتنوير: ج289/12.

[2] – التحرير والتنوير: ج12 /289.

[3] – الأساليب الإنشائية، عبد السلام هارون، ص65، 66.

4 – ينظر التحرير والتنوير: 60/13.

[5] – الأساليب الإنشائية ص66، من بلاغة القرآن: أحمد بدوي ص168.

هنا خاصة تعبيرا عن حالة نفسية ألمت بالرسول، وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم، فلم يزدهم ذلك إلا تماديًا في كفرهم، فأطبق السهم على فؤاده، كما أنه شعر بتخلي ربه عن نصرته، وبعده عن أن يمد يد المساعدة، فأتى بحرف النداء كأنما يريد أن يرفع صوته زيادة في الضراعة إلى الله واستجلاب رضاه».[1]

وقد يسبق النداء ثناء على الله كثناء يوسف عليه السلام، قال تعالى: **(فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)** [يوسف : 101].

ويتداخل غرض الدعاء مع دلالتي التمكين والإكرام كما ورد في قوله تعالى على لسان يوسف –عليه السلام – مخاطبا أهله: **(ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين)**يوسف:99، ففي قوله ادخلوا دعاء بالدخول؛ بقرينة قوله تعالى: (إن شاء الله)؛ لكونهم قد دخلوا مصر حينئذٍ، كالذي في قوله تعالى: (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم) الأعراف:49؛ لأن (آمنين) هي مناط الدعاء[2].

وهذا الإكرام يليق بمقام يعقوب – عليه السلام – الذي صبر الصبر الجميل على فقد ولده يوسف.

والتصريح بلفظ (مصر) في السياق القرآني له دلالته الأسلوبية تتمثل في أن مصر نصيرة فلسطين في الشدائد، فالجفاف والقحط اللذان أصابا أرض كنعان (فلسطين) كانت مصر محط الأمل والرجاء، وهذا ما حصل فعلا.[3]

5- النصح والإرشاد:

نحو قوله تعالى: **(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)** [يوسف : 67]. فالأمر في قوله:

(**ادخلوا**) للنصح والإرشاد والإشفاق، والسياق يوضح إشفاق يعقوب –عليه السلام – على أبنائه، وخوفه الشديد عليهم مما قد يسوؤهم من أثر العين، فنصحهم أن لا يدخلوا من باب واحد، بل من أبواب متفرقة.

والمراد بالجملة المنفية: **(وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)** تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدبًا مع واضع الأسباب، ومقدر الألطاف في رعاية الحالين؛

---

[1] – من بلاغة القرآن، ص 169.

[2] – ينظر التحرير والتنوير: 13/ 55.

[3] – النظم القرآني: 91.

لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها.[1]

ومنه قوله تعالى حاكيًا عن يعقوب –عليه السلام – يرشد أبناءه: **(يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)** [يوسف : 87].

يكشف السياق عن رغبة يعقوب عليه السلام في الاهتداء إلى ابنه يوسف وأخيه، وشدة تعلقه بهما حيث طلب من أبنائه مواصلة البحث عنهما، فالأمران في قوله : **(اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا)** للنصح والإرشاد، وهذا إرشاد لهم إلى بعض ما أبهم في قوله: **(وأعلم من الله ما لا تعلمون)** الآية 86. ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه **(إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)** لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته، فإن العارف لا يقنط في حال من الأحوال أو تأكيدا لما يعلمونه من ذلك .[2]

وهذه الجملة واقعة موقع التعليل للنهي المتقدم في قوله : **(وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)**.

ورغبة في الهروب من المجاعة استعمل يوسف فعل الأمر (ذر) في نصيحته عليه السلام للملك وحاشيته: **(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ)** [يوسف : 47]، فالأمر هنا خرج للنصح والإرشاد.

ومن غرض النصح والإرشاد قوله تعالى – حكاية عن يوسف –عليه السلام– **(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)** [يوسف : 55] ففيه طلب يوسف من الملك ليتوصل إلى نشر العدل ورفع الظلم.

6– التكـــــــــريم:

ومنه قوله تعالى: حكاية عن يوسف عليه السلام: **(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ)** [يوسف : 99]الأمر بالدخول للتكريم والطمأنة بدليل قوله : **(إن شاء الله آمنين)**، فهذا التعبير يوحي بالأمن والسلامة والطمأنة.

7– التشويق:

ومنه قوله تعالى حكاية عن الملك: **(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)** [يوسف : 54]. فالملك يتشوق إلى رؤية يوسف بعدما سمع عنه وسمع تأويله للرؤيا، وقد قال من قبل: **(ائتوني به)**، بعد سماعه تأويل الرؤيا، أما بعد سماع براءته وعفته، زاد شوقه إلى لقيا

[1] – ينظر التحرير والتنوير: ج21/13.

[2] – ينظر تفسير أبي السعود: ج 3/ 182، روح المعاني: ج 44/13 .

يوسف، فكرر طلب الإتيان به، وزاد قوله: **(أستخلصه لنفسي)**؛ قناعة منه أن هذه الشخصية تستحق كل الاحترام والتقدير، وعدم التفريط بها، فلما كلمه يوسف ارتفعت منزلته في نفس الملك فقال: **(إنك اليوم لدينا مكين أمين)**.

الخبر بمعنى الأمر:

ورد الخبر مرادًا به الأمر في قصة يوسف في قوله تعالى: **(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ)** [يوسف : 47].

يقول الزمخشري: « تزرعون خبر في معنى الأمر، وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به، فيجعل كأنه يوجد، فهو يخبر عنه».[1]

المبحث الثاني:

الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية لأسلوب النهي في قصة يوسف

وصيغة النهي واحدة، وهي لا الناهية والفعل المضارع (لا تفعل). وقد تخرج صيغة النهي عن دلالتها الأصلية (طلب الكف) إلى معانٍ بلاغية، ومقاصد أسلوبية تستفاد من السياق وقرائن الأحوال.

1ــ النصح والإرشاد:

ورد النصح والإرشاد على لسان يعقوب – عليه السلام – يرشد أبناءه وينصحهم ويعظهم بعدم اليأس من روح الله رغبة منه في مواصلة بحثهم عن ابنيه يوسف وأخيه اللذين فقدهما، قال تعالى: **(يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)** [يوسف : 87].

فالنهي في قوله: **(وَلَا تَيْأَسُوا)** مستعمل في النصح والإرشاد أي لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه، وقد أشار إلى هذا أبو السعود وتابعه الألوسي قائلا: (وهذا إرشاد إلى بعض ما أبهم في قوله: **(وأعلم من الله ما لا تعلمون)**، ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه: **(إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)** لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته، فإن العارف لا يقنط في حال من الأحوال، أو تأكيدا لما يعلمونه في ذلك.[2] وذما وتجهيلا للكافرين؛ لكون اليأس والقنوط من رحمة الله، لا يصدر إلا منهم، وهذه الجملة واقعة موقع التعليل للنهي السابق **(وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)**.

---

[1] – الكشاف: ج2/ 325.

[2] – ينظر تفسير أبي السعود: ج 182/3، روح المعاني: ج 13/ 44

2- الطمأنة والتسكين:

ورد في قوله تعالى: **(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** [يوسف : 69].

فالنهي في قوله: **(لا تبتئس)** مستعمل في الطمأنة والتسكين، وقلة المبالاة، أي لا تبتئس بما كانوا يفعلونه بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير، أو لا تحزن بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى.[1]

ويتداخل مع هذا الغرض النصح والإرشاد والمواساة.

3- التهـــــــديد والوعـــــــــيد:

نحو قوله تعالى: **(وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)** [يوسف : 59 ، 60].

يكشف السياق عن فطنة يوسف عليه السلام وذكائه، فقد جمع في قوله لهم بين الترغيب والترهيب والتهديد، فالترغيب في قوله: **(أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59)**.

أما الترهيب والتهديد ففي قوله: **(فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)** حيث توعدهم عليه السلام وهددهم بهذا القول، ففي التعبير بقوله: **(فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)** كناية عن حرمانهم من الميرة التي يمتارون بها عن المجاعة والقحط.[2]

4- المشـــــــــورة:

وردت المشورة في قوله تعالى: **(اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)** [يوسف: 9 ، 10] فقد تشاوروا فيما بينهم في قتله أو نفيه، لكن السياق يبين ما أشار به أحدهم قائلا: **(لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ)** أي إن كنتم ستفعلون ما يحصل به غرضكم فهذا هو الرأي.[3]

---

[1] – ينظر الكشاف: ج 333/2، أبو السعود: ج 170/2.

[2] – ينظر التفسير الكبير: ج171/18، البحر المحيط: ج321/5.

[3] – الكشاف: ج 2/ 305، التفسير الكبير: ج 18/ 97، البحر المحيط: ج5/ 158.

فالنهي في قوله: **(لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ)** مستعمل في المشورة كما هو واضح من السياق والمقام؛ وسبب الإظهار في قوله: **(لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ)** ولم يقل: (لا تقتلوه)؛ لاستجلاب شفقتهم عليه[1].

المبحث الثالث

الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية لأسلوب الاستفهام في قصة يوسف

الاستفهام طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبلُ.

وقد تخرج ألفاظ الاستفهام عن معانيها الأصلية لمعانٍ أخرى تستفاد من سياق الكلام: كالنفي، والإنكار، والتقرير، والتوبيخ، والتعظيم، والتشويق، وغيرها.

1- <u>الإنكـــــــــار:</u>

ويعني الإنكار أن تنكر على المخاطب، وتستهجن منه ما حدث " ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه، فيخجل ويرتدع، ويعي بالجواب" [2]

قال تعالى: **(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)** [يوسف : 11]. جاءت هذه الآية على لسان الأبناء لما عزموا على إلقاء يوسف في الجب، ليخل لهم وجه أبيهم، فابتدأوا بالنداء (يا أبانا) الذي يوحي بتذكير الوالد برابطة النسب القائمة على الحب الأبوي؛ لإثارة الشفقة عنده، وحققوا مطلبهم بالاستفهام (ما لك) المستعمل في الإنكار على نفي الائتمان»[3]، ويتبين من السياق أن الاستفهام للإنكار الممزوج بالتعجب؛ وذلك لأن الأبناء وإن استنكروا على أبيهم رفض الائتمان؛ فإنهم تعجبوا من الاستمرار في عدم ائتمانهم على أخيهم يوسف.

ولما كان الأبناء حريصين الحرص كله على إقناع والدهم بالعدول عن استمراره بعدم الائتمان، جاؤوا بالجملة الخبرية المؤكدة **(وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)** التي تزيل شكوكه، وتردده؛ ليسمح لهم – أخيرا– بأخذ يوسف.

وجاء على لسان يوسف – عليه السلام– وهو في السجن قوله تعالى:

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) [يوسف : 39].

فقوله: **(أأرباب)** استفهام عدل عن معناه الأصلي إلى دلالة بلاغية هي الإنكار، فقد مهد يوسف – عليه السلام – بدعوة الفتيين اللذين طلبا منه تأويل ما رأياه، فآثر دعوتهما إلى عقيدة التوحيد، والإيمان بالله

---

[1] – ينظر: فتح القدير للشوكاني : ج6/4.

[2] – دلائل الإعجاز، الجرجاني: ص 119.

[3] – التحرير والتنوير: ج227/12.

تعالى قبل أن يخبرهما، ولم يصرح لهما ببطلان عقيدتهما، فجاء الاستفهام؛ لأنه يثير في نفسيهما التفكير، ويدفعهما إلى الاعتراف ببطلان الأرباب الفارغة من معانيها، وبالمقابل يدعوهما إلى الإيمان بالله الواحد القهار، وهذا من باب التخلية قبل التحلية.

وجاء الاستفهام في سياق النداء(**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ**) الدال على التودد والمحبة؛ لكي لا تنفر طباعهما من مفاجأة بطلان ما كانا عليه من عبادة الأوثان.

وهذا من الأساليب الحكيمة في التأثير على المخاطب، وإقناعه بما يدعو إليه المتكلم.

ومناط الإنكار والشك هو ما جاء بعد الهمزة، وهي الأرباب المتفرقة التي لا خيرية فيها، وهي غير جديرة بالعبادة.

ويهدف الاستفهام الموجه من يوسف – عليه السلام – إلى قلب معتقدهما الفاسد، « فدل الإنكار على التوبيخ».[1]

وامتزجت دلالة الإنكار في **(أأرباب)** مع دلالة التقرير في قوله: **(أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)**؛ «لأنه بمعنى طلب الاعتراف والحكم بين شيئين لا يخفى خيرهما على العاقل لما بينهما من بون شاسع» [2]

وقد جاء الاستفهام من يعقوب – عليه السلام – في قوله تعالى: **(قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)** [يوسف : 64] فقوله: **(هَلْ آمَنُكُمْ)** استفهام خرج إلى غرض أسلوبي، يتمثل بالإنكار الذي فيه معنى النفي، أي: « لا آمنكم عليه؛ لأنكم قلتم في يوسف:**(وإنا له لحافظون)** يوسف: ١٢ كما تقولون في أخيه، ثم خنتم، فما يؤمنني من مثل ذلك»[3].

ومثّل الاستفهام الإنكاري الدال على النفي العقاب النفسي الذي عاقبه يعقوب لأبنائه، فلو قال لهم (لا آمنكم عليه) بالنفي الصريح، لم يفكروا، ولم يراجعوا أنفسهم؛ ليتذكروا سوء صنيعهم بأخيهم يوسف من قبل. أما الاستفهام فقد ضيق عليهم نفسيًّا؛ لأنه واجههم بسوء فعلتهم به، دون مباشرة، ومن هنا تجلت بلاغة الاستفهام على لسان يعقوب عليه السلام.[4]

ومن الاستفهام الذي حمل دلالات متنوعة ومعاني بلاغية اقتضاها المقام قوله تعالى – حكاية عن يوسف–: **(قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)** [يوسف : 89].

---

[1] – روح المعاني: ج434/12.

[2] – البحر المحيط: ج 309/5، وينظر النظم القرآني في سورة يوسف، جمال رفيق يوسف، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2000م: ص110.

[3] – الكشاف: ج 458/2، وينظر تمام حسان، البيان في روائع القرآن: ص73.

[4] – ينظر النظم القرآني في سورة يوسف: ص111.

قال الطبري:« فتأويل الكلام: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ فرقتم بينهما، وصنعتم ما صنعتم، **(إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)** يعني في حال جهلكم بعاقبة ما تفعلون بيوسف، وما إليه صائر أمره وأمركم؟»[1]

وذهب الزمخشري إلى القول: بأن يوسف « كلم إخوته مستفهمًا عن وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب، فقال: هل علمتم قبح (ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) لا تعلمون قبحه، فلذلك أقدمتم عليه.. فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحا لهم في الدين لا معاتبة وتثريبًا»[2]

وذكر القرطبي أن الاستفهام بمعنى التذكير والتوبيخ[3]. واقتصر الزركشي والسيوطي على غرض التذكير[4].

وقال الشوكاني: «الاستفهام للتوبيخ والتقريع.. ويستفاد منه تعظيم الواقعة؛ لكونه في قوة: ما أعظم الأمر الذي ارتكبتم من يوسف وأخيه وما أقبح ما أقدمتم عليه»[5].

2-التقـــــــــــــــرير:

وهو من الأغراض البلاغية والأسلوبية التي يخرج إليها الاستفهام في سورة يوسف ، ويقصد به «حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده».[6]

وحمل المخاطب على الاعتراف بالأمر بطريق الاستفهام أدل على الإلزام، وأوقع في النفس.

وقد تحقق هذا الغرض البلاغي في قصة يوسف في مواضع عدة منها قوله تعالى – في خطاب امرأة العزيز لزوجها-:

(قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيم) [يوسف : 25]. فيجوز أن تكون (ما) نافية؛ أي: ليس جزاؤه إلا السجن، ويجوز أن تكون للاستفهام بمعنى: أي شيء جزاؤه إلا السجن، كما تقول: من في الدار إلا زيد»[7]

---

[1] – تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2- 1968: ج327/13.

[2] – الكشاف: ج2/ 472.

[3] – تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي(ت 671هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1-2006م: ج11/ 441.

[4] – البرهان في علوم القرآن للزركشي: ج340/3، الإتقان في علوم القرآن: ج80/2.

[5] – فتح القدير: ج71/3.

[6] – البرهان في علوم القرآن: ج331/2.

[7] – الزمخشري: ج433/2) الرازي: ج122/18.

ونظرة تأمل في سياق الاستفهام يظهر بجلاء دلالته على التقرير؛ لأن المرأة لم تطلب الجزاء، وإنما قررته، فقد بادرت إلى تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة، وجمعت مع ذلك تخويف يوسف؛ ليعرف قدرتها على إيذائه. فقولها: **(من أراد)** فيه تأويل للأمر، ومبالغة في التخويف. وقولها: **(بأهلك)** غاية في تهييج الحمية لدى زوجها، وتذكير بالأنفة»[1]، وفي هذا تعظيم للخطب، وإغراء للعزيز على تحقيق العقوبة.

وأسلوب الحصر **(إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيم)** يدل على حرص المرأة على يوسف وحياته، لئلا يفكر العزيز بقتله، وهذا في غاية الدهاء؛ لأنها تريد أن يظل يوسف سالما.

وحقق الاستفهام غرض التقرير المتناغم مع غرضي التنبيه والحث في قوله تعالى:

(قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيم) [يوسف : 50].

جاء الاستفهام على لسان يوسف عندما رفض الخروج من السجن حتى تظهر براءته، فحث الملك ونبهه – عن طريق رسوله – على التفتيش والتحقيق مع النسوة لتتبين للملك براءته بيانا مكشوفا. « ومن كرم يوسف عليه السلام أنه لم يذكر امرأة العزيز مع ما صنعت به، وإنما جعل السؤال بحق النسوة اللاتي قطعن أيديهن.»[2] وجاء الاستفهام بعد فعل الأمر الدال على الحث والتنبيه (فاسأله)؛ ليدل على نفسية يوسف المصرة على إظهار براءتها، ويلحظ أن يوسف لم يطلب؛ لأنه عارف به، ولكنه جاء به لتتقرر براءته، باعتراف النسوة الكامل.

واتسقت دلالة التقرير في قوله تعالى:

(قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) [يوسف : 51].

التي جاءت على لسان الملك مع الدلالة التقريرية التي جاءت على لسان يوسف آنفا (ما بال؟)، فالملك نزه يوسف بقوله: **(إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ)**، وفيه تبرئة ليوسف.[3]

لأن الملك « يقرر اتهامهن، ويشير إلى أمر لهن جلل، أو شأن لهن خطير، والخطب: الأمر الجلل، ويبدو أن الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن، وهو المعتاد، وفي مثل هذه الأحوال؛ ليكون الملك على بينة من الأمر، وظروفه قبل الخوض فيه»[4]

---

[1] – لطائف الإشارات: القشيري: ج180/2.

[2] – البحر المحيط: ج346/5.

[3] – البحر المحيط: ج316/5

[4] – في ظلال القرآن: سيد قطب: ج1995/4.

وسياق الاستفهام يدل على التناسق بين اسمي الاستفهام (ما) عند الملك وعند يوسف، وهذا يدل على نوايا الملك الجادة في إظهار براءة يوسف. (ما) تتطلب من الملك الحصول من النسوة على الاعتراف الكامل للأمر المسؤول عنه، وهذا ينسجم مع (ما) المبهمة الدالة على العموم. ولفظة خطبكن لها إشعاعات أسلوبية تتمثل بتعظيم الملك لما اقترفته النسوة بحق يوسف من المراودة والاتهام الذي أدى إلى سجنه ظلما.[1]

وتجلى الاستفهام التقريري في قوله تعالى:

(أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) [يوسف : 59]، فجاء الاستفهام أثناء الحوار الذي جرى بين يوسف وإخوته الذين لا يعرفونه، وهذا ما يومئ بالمباشرة وعمق التأثير. فالاستفهام عدل عن معناه الأصلي إلى غرض بلاغي رفيع، يتمثل بالتقرير، وقد أدى دخول همزة الاستفهام على الكلام المنفي إلى إثباته، فيكون الجواب بـــ (بلى)، وفي ذلك زيادة في تقرير الإيفاء وتحقيقه؛ لأن الإخوة يعلمون التجهيز؛ للتنبيه على أن ذلك عادة مستمرة عند يوسف. وامتزج مقصد التقرير مع غرض الترغيب؛ لكي يعودوا إليه؛ لأن يوسف علم أنهم مضطرون للعودة مرة أخرى لعدم كفاية الميرة التي امتاروها لآل يعقوب.

وامتزاج الدلالتين (التقرير والترغيب) يتناغم مع الحالة النفسية ليوسف الذي يتشوق أيما تشوق لرؤية أخيه بنيامين؛ لأنه مقدمة لأمر عظيم، قدره الله العليم الحكيم، يتمثل بلم شمل آل يعقوب، وتحقيق رؤياه التي رآها مذ كان صغيرا.

ويظهر معنى التقرير في قوله تعالى:

(قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ) [يوسف : 80]- الذي جاء على لسان كبير الإخوة، فالاستفهام تقرير لهم بما يعرفونه مع قرب الزمان، ليشتد توجههم في بذل الجهد، وفي الخلاص من غضب أبيهم، وقد يكون الأخ الكبير قد قصد التقرير المستعمل في التذكير بعدم اطمئنان أبيهم بحفظهم لابنه بنيامين»[2].

ويظهر البناء اللغوي الذي تشكلت منه جملة الاستفهام انحرافه الأسلوبي إلى دلالات التقرير والإنكار والتذكير، ذلك أن الإخوة يعلمون أخذ الميثاق العظيم عليهم من أبيهم، ولكنهم عندما عزموا على العودة دون أخيهم بنيامين أنكر عليهم هذا الفعل، وأراد أن يقنعهم بالبقاء في مصر، فحقق ذلك بالجملة الخبرية المؤكدة(**أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ**)، كما جاءت على لسانه كلمة (موثقا) نكرة؛

[1] – ينظر النظم القرآني في سورة يوسف: ص115.

[2] – نظم الدرر: البقاعي: ج192/10 ، التحرير والتنوير: ج13/ 39.

لتعظيم العهد؛ لأنه مقطوع مع الله تعالى العظيم، وفي هذا تخويف للإخوة، وقوله: **(وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ)**؛ ليذكرهم بأعمالهم الذميمة بحق أخيهم يوسف.

إن الحالة النفسية للأخ الكبير اقتضت انبعاث الدلالات المختلفة المتناقضة لتتلاءم مع حالة عدم الاستقرار والتناقض للإخوة بعامة والأخ الكبير بخاصة.

وتتجلى البلاغة القرآنية، والمقاصد الأسلوبية للاستفهام في قوله تعالى –على لسان الإخوة بعدما كشف لهم يوسف عن نفسه عن طريق تذكيرهم بسوء فعلهم بقوله: **(هل علمتم)**، **(قالوا أئنك لأنت يوسف)** الآية:90، قال الزمخشري: «هذا كلام متعجب مستغرب لما يسمع؛ فهو يكرر الاستثبات، .. وقيل: تبسم عند ذلك فعرفوه بثناياه، وكانت كاللؤلؤ المنظوم...»[1]

ويفهم من كلام الزمخشري أن الاستفهام لدلالة التقرير المصحوبة بالاستغراب والتعجب، وأضاف الألوسي دلالة الاستبعاد؛ لأن الإخوة استبعدوا أن يكون العزيز يوسف، أو يوسف عزيزا»[2]

فالإخوة قد سمعوا يوسف يقول لهم من قبل: **(قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)** [يوسف : 89]. ورأوا فيه علامات تميزه وهو صغير، فجرى في نفوسهم أنه يوسف، فسألوه مقررين على وجه التأكيد والتحقيق بدليل أدوات التوكيد « إن واللام ».

إذن؛ الدلالات البلاغية المنبثقة من الاستفهام متناسبة مع الموقف وسياق الحال، والحالة النفسية والشعورية للإخوة، فمنهم من استغرب، ومنهم من تعجب، ومنهم من استبعد، أن يكون الأخ الصغير الذي ألقي في الجب قد وصل إلى أعلى مراتب العزة والرفعة.

وفي قوله تعالى: **(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)** [يوسف : 96]. جاء الاستفهام بعدما تحقق أمر الله بظهور يوسف وتمكينه في أرض مصر..

فدخول الاستفهام على كلام منفي أحاله إلى الإثبات، فيكون الجواب بـــ (بلى)، وهذا مناط التقرير، ودل تقديم شبه الجملة (لكم)على معنى الاختصاص، أي: ألم أقل لكم خصوصًا مرات عديدة، وأذكر لكم بأني أعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف، وأن الله سيجمع بيننا يقينًا.

---

[1] – الكشاف: ج473/2، وينظر تفسير أبي السعود: ج184/3.

[2] – روح المعاني: ج 46/13.

تناسقت دلالة التقرير المصحوبة بالتذكير مع شخصية يعقوب – عليه السلام – النبي الذي يثق بالله عز وجل، وأنه لا راد لقضائه، وأنه لا يضيع أجر المحسنين أمثال يوسف عليه السلام، وفي هذا توظيف لأسلوب الدعوة إلى الله الذي يقوم على اللين والصبر واليقين، بنصرة الله عباده المتقين.

ويظهر مما سبق أن الاستفهام حقق مقاصده البلاغية والأسلوبية بما يتلاءم والنماذج البشرية في قصة يوسف، حسب ما يقتضي السياق.

المبحث الرابع

الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية لأسلوب النداء في قصة يوسف

والغاية من النداء القرآني أن يتنبه المنادى، فيصغي إلى ما يلقى إليه « لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامر ونواه وعظات وزواجر ووعد ووعيد، ونحو ذلك مما أنطق الله به كتابه، أمور عظام، ومعان ينبغي أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها»[1].

وإذا ما استعرضنا النداء في قصة يوسف، فإننا نرى أن الذي وليه في الآيات الكريمة إما أمر أو جملة خبرية طلبية، أو استفهام.

فكل هذه الأمور ذات بال ينبغي أن ينتبه لها المخاطب، ولذا سبقت بالنداء تهيئة وإيقاظا للمخاطب؛ ليصغي إلى تلك الأمور المهمة، فيقف عليها ويدرك المراد منها.

والأصل في النداء أن يرد تنبيها للمنادى؛ ليسمع ما يلقى إليه بعد النداء من أمر أو نهي ليعمل بمقتضاه.

وقد يخرج النداء عن معناه الأصلي؛ ليفيد معاني بلاغية ومقاصد أسلوبية عدة منها:

1- <u>الدعـــــــاء:</u>

وقد ورد هذا المعنى في موضعين، الأول في قوله تعالى – حكاية عن يوسف عليه السلام – مناجيا ربه: **(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)** [يوسف : 33].

والموضع الثاني عندما تحققت رؤياه، وملكه الله عرش مصر:

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) [يوسف : 101] فالموقف موقف تضرع وابتهال وقرب،

[1] – الإتقان في علوم القرآن: ج82/2.

ولعل في ذلك تعبيرا عن شعور الداعي بقربه من ربه، ونصبت فاطر على إضمار حرف النداء، وفيها دلالة التعظيم.[1]

2- **إظهار الطواعية والبر:** جاء في قوله تعالى – حكاية عن يوسف عليه السلام – في موضعين: الأول في قوله تعالى:

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) [يوسف : 4] . والموضع الثاني في قوله تعالى: **(وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا)** [يوسف : 100] أظهر يوسف في نداء أبيه الطواعية والبر، والتنبيه على محل الشفقة بطبع الأبوة التي يمتلئ فؤادها بالحنان والإشفاق، وجاء هذا النداء وهو طفل صغير.

والموضع الثاني صدر من يوسف، وهو عزيز مصر، وهذا يدل على أن شخصية يوسف عليه السلام شخصية ثابتة على الحق، فخاطب أباه في منتهى الأدب؛ إذ جاء خطابه لأبيه في الآية الثانية كأنه يقول: « يا أبت لا يليق بمثلك على جلالتك في العلم والدين والنبوة، أن تسجد لولدك ، إلا أن هذا أمر أمرت به، وتكليف كلفت به، فإن رؤيا الأنبياء حق».[2]

والتاء في قوله تعالى: **(يا أبت)** عوض عن الياء؛ إذ الأصل (يا أبي)، ولذلك لا يجتمعان، فلا يقال: (يا أبتي)؛ لئلا يجمع بين العوض والمعوض عنه، وقد عدل عن هذا الأصل إلى ما عليه الآية الكريمة للمبالغة والتأكيد على معنى الأبوة. والإشعار بما يجب لها من تقدير وتعظيم.

واستعمل في ندائه لأبيه (يا) التي للبعيد، مع أنه بجواره للإشعار برفعته، وعلو منزلته عنده، وتهيئة ذهنه للخبر الذي سيلقيه إليه، و« استلذاذاً بالخطاب بالأبوة ».[3]

3- **التـــــــودد والتحـــــــنن:**

وهذا المقصد يليق بمقام الأبوة الصادقة، كما ورد حكاية عن يعقوب في مواضع ثلاثة، الموضع الأول: في قوله تعالى: **(قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا)** [يوسف : 5].

وفي هذا النداء شفقة على ابنه يوسف، والتصغير للتحبب لصغر السن. و« يا بني إشارة إلى أن يوسف عليه السلام – هو في سن مبكرة، ومن ثم فهو على عتبة محطات كثيرة متباعدة زمانا ومكانا، فتصغير الابن لها دلالتها في السن المبكرة، إضافة إلى التودد والمحبة».[4]

---

[1] – البحر المحيط: ج5/ 306،343، روح المعاني: ج12/ 425،-53/13.

[2] – روح المعاني: ج56/13.

[3] – نظم الدرر: ج217/10.

[4] – في التذوق الجمالي لسورة يوسف، محمد علي أبو حمدة، ط2، دار البشير، عمان،1991 ، ص31

والنداء في **(يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ)** مع حضور المخاطب مستعمل في طلب إحضار الذهن، اهتماما بالغرض المخاطب فيه، وهو دلالة على أهمية النهي بعدم القص على إخوته؛ لأن الأمر ذو شأن، فيبادر إلى الإجابة والامتثال.

أما الموضع الثاني للنداء فهو حكاية عن يعقوب مخاطبا أبناءه: **(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)** [يوسف : 67]، والموضع الثالث: **(يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ)** [يوسف: 87] ، ويظهر من نداء يعقوب – عليه السلام – لأبنائه في الموضعين دلالة الرقة والملاطفة، وشدة العناية بهم، وناداهم بأداة النداء البعيدة؛ لشدة تنبيهه لهذا الأمر الجلل[1].

وفي قوله تعالى: **(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)** [يوسف : 39] ، تتمثل دلالات التلطف والتودد والتحبب .

وكذلك في قوله تعالى: **(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ)** [يوسف : 41]. « وناداهما باسم الصحبة بالأداة التي تقال عند ما له وقع عظيم في النفوس، وفي المكان الذي تخلص فيه المودة، وتتمخض فيه النصيحة، وتصفى فيه القلوب، ويتعمد الإخلاص رجاء الخلاص».[2]، وفي ندائه لهما «ترفق وتحبب وإيناس».[3]

ولعل في ندائهما حثا لهما على الإقرار بالحق، كأنه قال لهما يا ساكني هذا المكان الشاق، و(يا) للنداء البعيد للإشارة إلى غفلتهما، وهيمانهما في أودية الضلال، وقد تلطف بهما من ردهما إلى الحق، وإرشادهما إلى الهدى، حيث أبرز لهما ما يدل على بطلان ما هما عليه بصورة الاستفهام حتى لا تنفر طبائعهما.

ويفهم من النداء معنى الالتماس؛ لأنه كان طلبًا برفق، وفي الآية (41) يفيد التذكير لإيقاظ الفطرة السليمة لدى السجينين، وتكرار النداء تأكيد لما قرره.

وتتجلى دلالة التعظيم أيضا في الآيات الكريمة – حكاية عن إخوة يوسف – منادين والدهم في ستة مواضع كالآتي:

1- (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) [يوسف : 11].

---

[1] – النظم القرآني في سورة يوسف: 119.

[2] – نظم الدرر: ج87/10.

[3] – في ظلال القرآن: ج1989/4.

2- **(قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ)** [يوسف : 17].

3- **(قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)** [يوسف : 63].

4- **(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا)** [يوسف : 65].

5- **(ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ)** [يوسف : 81].

6- **(قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ)** [يوسف : 97].

فالإخوة نادوا والدهم مع كونه حاضرا؛ لأن المقصود الاهتمام بالخبر الذي سيلقى إليه في كل نداء على حدة، مع الاهتمام بالمخاطب، والتعظيم له، واستعطافه ورجائه لتحقيق ما يريدون.

ففي المواضع الستة خاطبوه بلفظ الأبوة استعطافًا له، وتحريكًا للحنو الذي جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء، وتوسمًا بذلك إلى إتمام ما يريدونه.

وقد عدل إلى النداء المشتمل على أسلوب(يا أيها) للإكبار والتعظيم؛ إذ ورد على لسان الإخوة في ندائهم لعزيز مصر (يوسف) -عليه السلام- في آيتين: الأولى: قوله تعالى: **(قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)** [يوسف : 78] ، فهذا النداء استعطاف وتذلل ليوسف»[1] « يليق بالأكابر ليرق لهم»[2]

أما الآية الثانية ففي قوله تعالى: **(قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا)** [يوسف : 88].

فالنداء في الآيتين خرج دلاليًّا إلى معنى التعظيم ليوسف، واستعطافه، فقول الإخوة (مسنا وأهلنا الضر) أيقظ عواطف الشفقة لدى يوسف، فكلمة (وأهلنا) تذكره بأبيه يعقوب عليه السلام.

ويتميز أسلوب (يا أيها) بعناصر لغوية ذات تأثير في اللفت والإيقاظ، فـ(أي) للإبهام، و(ها) للتنبيه، وهي من أكثر أساليب النداء ورودا في القرآن الكريم، « وسر النداء بهذه الطريقة للتأكيد والمبالغة»[3]

وفي قوله تعالى: **(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا)** الآية:46، تظهر دلالتا التعظيم والتحبب، فيوسف منادى حذفت منه أداة النداء، وهذا يدل على أنه قريب محبوب، وزاد في التحبب قول الفتى ليوسف **(أَيُّهَا الصِّدِّيقُ)**، أي «البليغ في الصدق؛ لأنه جرب أحواله في مدة إقامته معه في السجن»[4]، وفي النداء إشارة

---

[1] – الكشاف: ج464/2.

[2] – نظم الدرر: ج180/1.

[3] – من أسرار التعبير القرآني: محمد أبو موسى، ص5.

[4] – روح المعاني: ج443/12.

إلى أنه ينبغي للمستفتي أن يعظم المفتي، فتقديم اسم يوسف دال على اختصاص يوسف بالصدق، ومن هنا جاءت دلالة التعظيم.

وقد تجلت دلالة الإكبار والتعظيم في نداء الملك لأشراف دولته كما ورد في قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ)** [يوسف: 43].

لاسيما في الأمور الخطيرة، والتعبير عن الإفتاء لتشريفهم، وتفخيم أمر رؤياه.

ومن الأغراض البلاغية للنداء في سورة يوسف:

4- التقريب والتلطيف:

كما في قوله تعالى: **(يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا)** [يوسف: 29].

وحذف حرف النداء؛ لأن هذا الحذف أشار إلى معنى التقريب والملاطفة؛ « لأنه منادى قريب مفاطن للحديث، وفيه تقريب لمحله».[1]

ومن الأغراض البلاغية والأسلوبية للنداء أيضا:

5- الفرح والابتهاج والبشارة:

كما في قوله تعالى: **(قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَام)** [يوسف: 19]، وقد ورد هذا التعبير في نداء الوارد الذي وجد يوسف في الجُب، فقال يا فرحتاه، أو يا قوم أبشروا بهذا الذي لقيناه، فالنداء تبشير لمن حضر، وهو أوكد من قولك بشرته.[2]

وقال الزركشي: « قالوا معنى النداء فيما لا يعقل تنبيه المخاطب وتوكيد القصة»[3].

« ونداء البشرى مجاز؛ لأن البشرى لا تنادى، ولكنها شبهت بالعاقل الغائب الذي احتيج إليه، فينادى كأنه يقال له: هذا أوان حضورك، فنداء البشرى لمعنى الفرح والابتهاج.[4]

ومن أمثلة نداء ما لا يعقل في قصة يوسف نداء يعقوب للأسف الذي جاء في قوله تعالى: **(وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ)** [يوسف : 84] ، فعدل النداء إلى معنى بلاغي أسلوبي وهو التفجع والندبة، والمعنى: يا أسفي تعال، فهذا أوانك، والألف بدلا من ياء المتكلم للتخفيف، ونداء الأسف للتعجب.[5]

---

[1] – الكشاف: ج2/ 435، البحر المحيط: ج298/5.

[2] – فتح القدير: ج 13/3.

[3] – البرهان في علوم القرآن: ج 353/3.

[4] – الكشاف: ج 426/2، التحرير: ج241/12.

[5] – البرهان في علوم القرآن: ج 3/ 353.

ونداء الأسف مجاز، نزل الأسف منزلة من يعقل، فيقول له: احضر، هذا أوان حضورك، على سبيل الاستعارة المكنية، ويمكن اعتبار هذا النداء « للندبة لأن القصد منه إظهار التفجع على من هو في حكم الميت، وإظهار التوجع من شيء يؤلم».[1]

ويظهر بعد استعراض المعاني البلاغية والأسلوبية للنداء أن النداء يمتلك طاقات إيحائية لا تقل عن الاستفهام أو غيره من أقسام الإنشاء الطلبي.

خاتمة البحث:

تتحدث خاتمة البحث عن أهم نتائج البحث وتوصياته ومقترحاته، وهي على النحو الآتي:

أولاً: نتائج البحث:

ويمكن أن نوجزها في الآتي:

1- إن تتبع الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية في الأساليب الإنشائية أظهرت جوانب من الإعجاز البلاغي في قصة يوسف عليه السلام.

2- إن التكامل والتآزر بين الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية في فهم النص القرآني أسهم في الاستنباط السليم للمقاصد القرآنية في قصة يوسف عليه السلام.

3- أضاف علماء التفسير كثيرًا من الأغراض البلاغية في الأساليب الإنشائية، ولا توجد في كتب البلاغة، وقد أسهمت في إبراز معاني قصة يوسف، وترابط أحداثها.

4- إن تناول الدرس البلاغي بشكل أسلوبي في الأساليب الإنشائية يساعد على إظهار الترابط بين المفاهيم البلاغية في النص القرآني في قصة يوسف، وأظهر فيه جمال التعبير والإثارة.

ثانيًا: التوصيات:

في ضوء تلك النتائج يمكن الخروج بالتوصيات الآتية:

1- أن يعاد النظر في تأليف كتب البلاغة لتتبع الأغراض البلاغية التي وجدت في بعض كتب التفسير، ولا تقتصر على النقل والتلخيص من كتب البلاغة القديمة فقط.

---

[1] – أوضح المسالك، لابن هشام: ج52/4.

2- أن يجمع الدرس البلاغي بين الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية في النص اللغوي؛ لإظهار جمال التعبير في الأساليب العربية وتذوقها.

3- أن يركز درس التفسير على الجمع بين الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية في النص القرآني؛ لإظهار بعض جوانب الإعجاز البلاغي، والاستنباط السليم للمقاصد القرآنية.

4- أن تدرس البلاغة من خلال نصوص لغوية راقية، وليس من خلال أمثلة مبتورة من سياقها، وأن يعتمد التطبيق في المقام الأول على النص القرآني لاسيما القصص القرآني؛ للتعرف على النظم القرآني وجوانب الإعجاز فيه.

ثالثًا: المقترحات:

1- القيام بأبحاث تحقق للبلاغة هدفها الذي ألفت من أجله، وهو خدمة القرآن الكريم أولا، كما وجدت في بعض كتب التفسير لاسيما الكتب التي اعتمدت على الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية في استنباط المقاصد القرآنية: العقدية التربوية والتشريعية.

2- القيام بأبحاث تجمع ما تشتت من كتب التفسير من الأغراض البلاغية والمقاصد الأسلوبية المتضمنة في الأساليب الإنشائية، وغيرها من أساليب اللغة العربية.

3- تأليف كتب تعليمية في البلاغة العربية تعتمد على المنهج التكاملي الذي يجمع بين المهارات البلاغية ومهارات التذوق الأدبي من خلال نصوص راقية، يظهر من خلالها جمال اللغة العربية وتذوق أساليبها، وإظهار جوانب من الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، والتدريب على محاكات أساليبها وفق نظرية النظم التي أبدعها عبد القاهر الجرجاني. وتطبيقاتها في بعض كتب التفسير والدراسات الأسلوبية.

قائمة المصادر والمراجـــــع:

1) ابن عاشور، محمد الطاهر(1980) ، التحرير والتنوير، الدار التونسية، ط1.
2) أبو حمدة، محمد علي (1991)، في التذوق الجمالي لسورة يوسف، دار البشير، عمان، ط2.
3) أبو موسى، محمد حسين (1976)، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، دار الفكر العربي.
4) الآلوسي، محمود أبو الفضل ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
5) الأندلسي، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان (1993)، البحر المحـيط، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ، دار الكتب العلمية، بيروت.
6) الأنصاري، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبـد الله بـن هشـام (1979م)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك. دار الجيل– بيروت.
7) بدوي، أحمد أحمد (2005)، من بلاغة القرآن، مطابع نهضة مصر، القاهرة.
8) البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر (ت885ه)، نظم الدرر فـي تناسـب الآيـات والسور، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط 1995 .
9) الجرجاني، عبد القاهر(2004)، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة.
10) حسان، تمام (1993)، البيان في روائع القرآن، عالم الكتب ، القاهرة، ط1.
11) الخفاجي، أحمد بن محمد الشهاب ، حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
12) دراز، صباح (1991)، من الإعجاز البلاغي للقرآن، المكتبة التوقيفية، القاهرة، ط1.
13) الرازي، فخر الدين (1995)، مفاتيح الغيب. ويسمى التفسـير الكبيـر، دار الفكـر بيروت.
14) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (1988م)، البرهان في علوم القرآن، تعليق: مصطفى عبد القادر عطا، ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط1.
15) الزمخشري، محمود بن عمر (1997)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1.

16) السيوطي، جلال الدين (1973م)، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية بيروت – لبنان،(د. ط).
17) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر – بيروت.
18) العمادي، محمد بن محمد أبو السعود ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. دار إحياء التراث العربي– بيروت.
19) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (2006م ــ)، الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1.
20) القشيري، عبد الكريم (بدون)، لطائف الإشارات، تحقيق إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية للكتاب، مصر.
21) قطب، سيد (1995) ، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة.
22) نصر، محمد بن موسى، و الهلالي، سليم بن عيد (2003)، إتحاف الإلف بذكر الفوائد الألف والنيف من سورة يوسف عليه السلام، مكتبة الرشد، الرياض، ط1.
23) هارون، عبد السلام (2001م)، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5.

2-

3- رسائل جامعية:

1) الحاج، جمال رفيق يوسف (2000م) ، النظم القرآني في سورة يوسف عليه السلام، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين.